

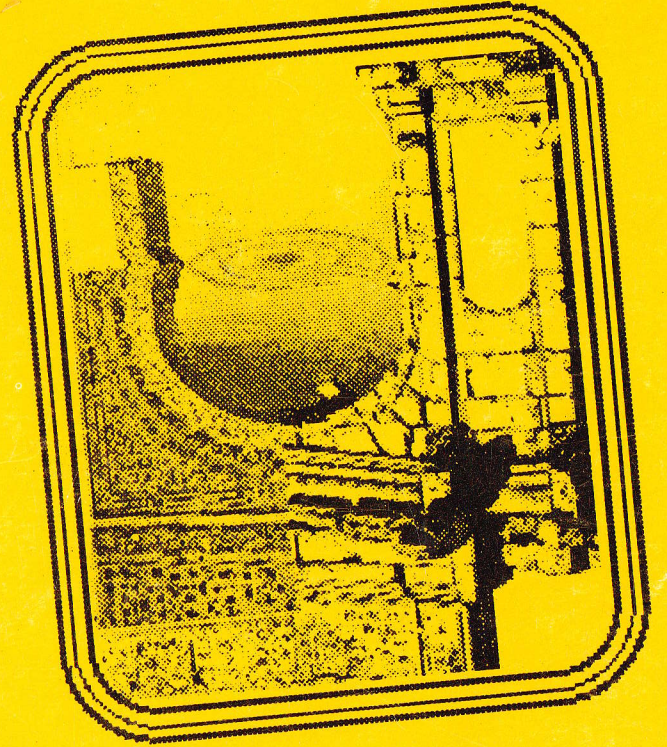
نظرة حول البحث الأثري في الريف القديم

من تقديم السيدة: مهنتل جهيدة

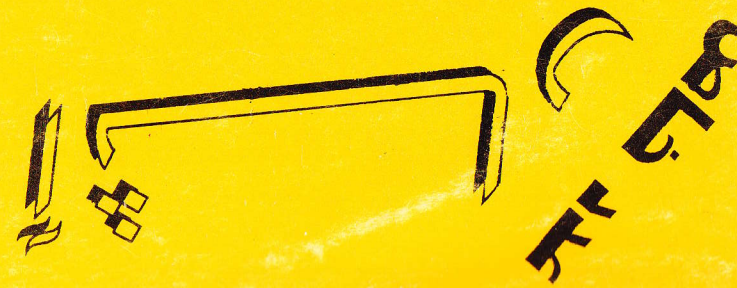
إذا كنّا نجهل الكثير عن مدننا القديمة، فإن جهلنا لعالم الريف القديم يظل عميقا. فالأبحاث في هذا المجال قليلة جدا في بلادنا. وتبقى أعمال بعض الباحثين الفرنسيين خاصة خلال الفترة الإستعمارية هي مصدرنا الأول.

وإذا ألقينا نظرة عن هذه الأخيرة، فإننا نلاحظ أنها في أغلب الأحيان لم تكن تهتم كثيرا لمشكلة الريف، وكفينا أن نذكر في هذا الصدد كتاب ستفان قزيل (St-Gsell) حول المعالم الأثرية القديمة بالجزائر.

إذ نرى من خلاله انصباب الباحثين القدامى بالدرجة الأولى على وصف ودراسة آثار المدن القديمة التي كانت بارزة آنذاك كشرشال، تيبازة، تمقاد، جميلة وغيرها.



العدد رقم 50 - 6661 1999



وتتعدد ربما الأسباب لذلك، فقد يرجع هذا الأمر إلى تمسك الكثير منهم مثلاً بفكرة «إفريقيا المنسية» ويقصد بها المناطق المرتفعة والجبلية التي كانت خاصة فقط بالسكان المحليين، أي أن الرومان لم يصلها. أما السهل، فبالعكس، فقد كان موضع إستيطان الرومان.

وهذه الفكرة تتماشى وتطابق نظرية كريستيان كورتوا Ch. Courtois التي حللها في كتابه حول الوندال في شمال إفريقيا، حيث يضع الكاتب الفرق الجغرافي للسهل والجبل كفرق ثقافي بين العالم الروماني المتحضر والعالم البربري، أي السكان المحليين.

ولقد دار الحوار والجدال كثيرا حول هذه النقطة، أي تناظر السهل والجبل ونظمت عدة ملتقيات نذكر منها ملتقى اكس أوبروفنس⁽¹⁾ أين توضح جليا خطأ هذه الفكرة الذي أكدته الأبحاث الأثرية فيما بعد.

ويمكن أن نشير هنا إلى نتائج أبحاث فيليب لوفو في نواحي شرشال التي بينت وجود فيلات رومانية في أعالي الجبال. والعمل المتواضع الذي قمت به في جزء من التلال الشرقية الجزائرية، وبالضبط في منطقة عين الكبيرة حيث عثرت على آثار لمساكن قديمة كما توضحه الخريطة الأثرية للمنطقة (شكل رقم 1)، ومنها آثار فيلا villa رومانية بموقع البهية (رقم 12 على الخريطة).

وكان صعب جدا وضع مخطط مبدئي لهذه الآثار، لأنها مشتتة وتتخللها بناية الأصطبل - المخطط (شكل 2) يوضح لنا تشتت الجدران - التي تعود إلى العهد الفرنسي، وأفتح هنا قوسا للتنبيه بأن الكثير من الآثار الريفية أُلْتُفِت أثناء بناء القرى الإستعمارية الفرنسية.

ومن بين المواقع أيضا التي تلفت الإنتباه الكبير، هي موقع الخربة (خربة عقوب في أطلس قزيل)، (رقم 1 على الخريطة الأثرية للمنطقة). لأن الموقع عبارة عن معصرة كبيرة، تعتبر نموذجا هاما للمعاصر الزيتية الرومانية شمال إفريقيا، والصورة الحالية لها تبين إتلافها شيئا فشيئا (شكل 3).

فالمكان عبارة عن مزبلة، وربما قد لا نعثر على آثارها في المستقبل القريب نظرا للإمتداد العمراني لقرية عين الطويلة أين تقع المعصرة.

ولم يبق الكثير من البلاطات الواحد والعشرين التي ذكرها جون مونيه (J. Meunier) سابقا عندما قام بالتنقيب فيها ووضع مخططها الذي يتبين لنا من خلاله أننا أمام مصنع للزيت (المخطط شكل 4).

ونفس الشيء يمكن قوله على آثار أخرى بالمنطقة كذلك الحمام الروماني مثل ما تدل عليه الحنية (شكل 5) وقد كشف صدفة من طرف صاحب البيت عند حفر البئر. كان صعب جدا أخذ صور للموقع بسبب تخوف صاحبه كوني سأسبب له مشاكل قد توقف مشروع البئر. وأظن أن الأمر هنا بدون تعليق - فإذا كان إنسان المدينة لا يبالي في كثير من الأحيان بالآثار - فما بالك بإنسان الريف.

وما هذه الآثار إلا عينة من آثار الريف الكثيرة جدا عبر التراب الوطني.

وقد نلاحظ أيضا من أسباب عدم الاهتمام بآثار الريف، طابعها الظاهري البسيط، ووجود صعوبة للتنقيب فيها. فكثيرا ما يشير إليها أطلس قزيل كآثار لا أهمية لها - الشيء الذي صادفته شخصا في

المنطقة، فهناك مواقع لم يعطها الأطلس أهميتها فيما هي العكس ميدانيا. لأن الكثير من المعلومات الموجودة في الأطلس أخذها قزيل من الضباط الطبوغرافيين دون زيارتها. رغم أننا لا نستطيع إنكار عمل قزيل الجبار، إذ يبقى مصدرنا الأول لغناه بالمعلومات الأثرية، إلا أن إعادة النظر فيه، وفي ما قيل من قبل بدء بالمصادر القديمة الأدبية والكتابات الأثرية واجبة علينا اليوم لأننا أمام مادة خام، فكثير من الباحثين القدامى في الفترة الإستعمارية الفرنسية كانوا إداريين أو جنود أو هواة. ويكفي إلقاء نظرة على المنشورات القديمة للتأكد من ذلك.

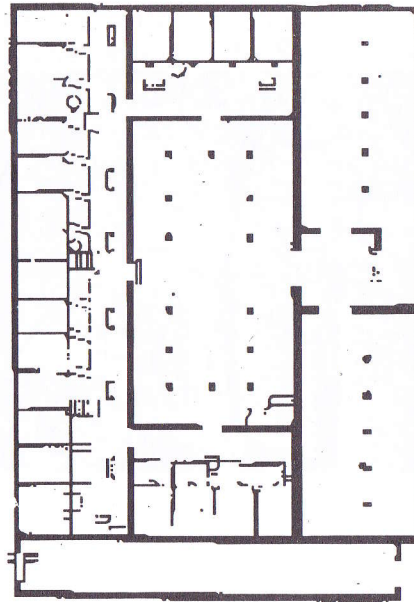
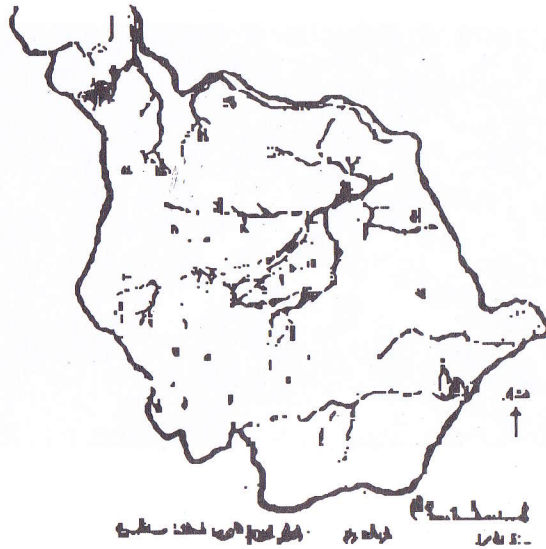
وكان البعض منهم يضع الصلة بين الاستعمار الفرنسي والاحتلال الروماني في اعتبار الكثير من الآثار الريفية حصونا عسكرية دفاعية حيث ظهرت مصطلحات قرية محصنة (Ferme fortifiée) أو حصن (Fort) وغيرها التي قد لا تؤدي الوظيفة الحقيقية للأثر(2).

وتبقى تقريبا إلى يومنا تلك الأعمال الفرنسية القليلة هي مصدرنا الأول في البحث في عالم الريف القديم - فالأبحاث الجزائرية في هذا المجال قد تعد على الأصابع - ويمكن أن أذكر هنا البحث الذي قام به الأستاذ مصطفى فيلاح بنوميديا الغربية والبحث الجاري للأستاذ بورحلي إبراهيم بنوميديا الوسطى، وبعض الأعمال التي قام بها طلبة معهد الآثار في تحضير مذكرة نهاية الليسانس في محاولتهم وضع خرائط أثرية لبعض المناطق. ولكنها تبقى غير كاملة وناقصة من الناحية العلمية.

وحتى لا نكون سلبيين كثيرا في أن نشكو من قلة الاختصاص في بلادنا، فإننا يمكن القول بأن مسألة الريف لا تزال في حداثتها في بعض الدول المتطورة وتخصص لها عدة ملتقيات بنظرة جديدة في البحث يرى فيها الأثريون ضرورة إشتراك تخصصات أخرى في دراسة آثار الريف خاصة الجغرافيا نظرا للعلاقة الكبيرة الموجودة بين دراسة الأثر والمنظر الطبيعي المحيط به، وعلاقة الإثنين طبعا بالبحث الميداني لأنه كثيرا ما يجد الأثري نفسه يصبح جغرافيا رغما عنه - فطبيعة البحث الميداني يلزم عليه معرفة الجغرافيا في تحديد الأماكن الطبيعية ووصفها. هذا إلى جانب الإستعانة بمختصين آخرين كالجيولوجيين، وعلماء النباتات القديمة، وعلماء الأحياء القديمة في إعادة بناء المحيط، والأنثروبولوجيين والمؤرخين في الدراسة الاجتماعية والاقتصادية. أيضا الإستعانة بعلم دراسة أسماء الأماكن، فكثيرا ما تحمل بعض الأماكن أسماء تدل على ماضيها مثل كلمة برج مثلا. فيستعمل التخصص هنا كمؤشر لوجود الآثار. ومن التخصصات الجديدة التي أصبحت تساهم أيضا في البحث هي علم الآثار النباتية، التي تدرس الآثار النباتية داخل المواقع الأثرية(3).

أما عن الوسائل والطرق المستعملة في البحث الميداني في الريف فتعتبر الصور الجوية أهم مدعم لاكتشاف آثار الريف باستعمار النظرة الأفقية والنظرة المائلة التي استعملها جون براداز (J. Baradez) سنة 1949 عندما كان يبحث عن الليماس، وتستعمل النظرة الأفقية خاصة في دراسة آثار المساحات (Cadastres)، وادخلت حاليا حتى الأقمار الصناعية.

(3) - لقد تعرفت عليها من خلال التبرص الذي قمت به بناحية Lunel viel بمنطقة Montpellier بفرنسا، سنة 1989.



أما عن الطرق المتبعة في البحث الميداني، فهناك عدة طرق أقدمها طريقة التمعن إلى ما فوق السطح (à vue) التي يستعين فيها الأثري بالسكان المحليين، ويلتقط إلا ما يهمه من عتاد أثري. وظهرت طرق جديدة مثل طريقة ما يسمى بـ Field-walking التي استعملت ببريطانيا، وتتلخص في تقسيم المكان المخصص البحث إلى مربعات متساوية والنقاط دون استثناء كل ما هو على السطح بالمشي في خط واحد - أما الطريقة الأمريكية التي استعملت في إيطاليا مثلا تتخلص في تحديد سلاسل بكلم واحد في العض بتشكيل مثلث ذو زاوية قائمة بحيث تغطي كل زاوية 1/10 المساحة المراد بحثها.

وعدا الطريقة الأولى التي تبقى رغم قدمها هامة، مفيدة جدا أولا تتطلب عدد كبير للقيام بها، فقد تفيدنا الطريقتين الأخيرتين مستقبلا في تخصيص تربصات للطلبة يشرف عليها أثريين مختصين - وقد تساهم هذه التربصات في إعادة النظر في أطلس قزيل، ووضع أطلس جديد تكون مساهمة فروع الوكالة الوطنية للآثار المتواجدة على كامل التراب الوطني تقريبا كبيرة. وهذا ما نطمح إليه إن شاء الله.

الهوامش:

(1) - main", Fevrier (P.A.) et Leveau (Ph), "Villes et campagnes dans l'empire ro - Actes du colloque organisé à Aix-En-Provence, 1980.

- Fevrier (P.A.), "Le monde rural du Maghreb antique", Paris, 1986.

(2) - Dans revue Leveau (Ph), "La question du territoire et les sciences de l'artiquité". - des Etudes anciennes, 1984, pp. 84-114.

